

أ. حساني مختار

جامعة الجزائر

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

عبد الرحمان بن محمد الثعالبي

1470-1384/ 875-786

عبد الرحمان بن محمد الثعالبي

1470-1384/ 875-786

هو عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي كنيته أبو زيد⁽¹⁾ ولد ونشأ بناحية وادي يسر⁽²⁾ بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر تنتمي أسرته إلى الثعالبة⁽³⁾ اعتبر من كبار علماء عصره وصلحائهم قال في شأنه السخاوي⁽⁴⁾ كان إماما علامة مصنفًا ، أما تلميذه عيسى بن سلامة البسكري فقال عنه كان شيخنا الثعالبي رجلا صالحا زاهدا عالما واليا من أكابر العلماء له تأليف جملة⁽⁵⁾ فشهرة الثعالبي قد غطت الآفاق ؛ ودرسه أكثر من واحد؛ ولا يكاد الباحث يجد كتابا من كتب التراجم؛ لم يتناوله بالقليل؛ أو الكثير.

فحياته إذن معروفة؛ وعصره مدروس؛ وبعض تأليفه متداول بين الناس؛ مثل الجواهر الحسان.

وضريحه حجة للزائرين؛ في مدينة الجزائر إلى اليوم؛ ولهذا فهو مرتبط بالمدينة.

نسب الشيخ إلى إحدى القبائل العربية العتيدة التي استقرت في الجزائر بعد الهجرة الهلالية الثعالبة.

الثعالبة:

قبل التعرض لحياته يجدر بنا تناول قبيلة الثعالبة التي ينتسب إليها عبد الرحمن الثعالبي؛ وهي حسب ما أورده ابن خلدون: (من ولد ثعلب بن علي؛ بن بكر؛ بن صغير أخي عبد الله بن صغير وهم من المعقل الذين استقر بعضهم ببلاد الجزائر مثل ذوي عبد الله؛ من عرب الجزائر؛ والثعالبة استقروا بسهل متيجة الذي عرفه عبد الرحمن بن خلدون بسيط متيجة؛ وقبل توأجدهم به؛ استقروا بمضارب حصين؛ التي توجد بنواحي المدية .

ويبدو لي أن توأجدهم بالناحية؛ بدأ مع انتقال الهلاليين من الواحات الصحراوية نحو التلول؛ خاصة الجهة الغربية؛ فكان استقرارهم مع استقرار بني عامر؛ وذوي عبيد الله؛ في الناحية الغربية.

ولعل من أهم المراكز التي استقروا بها ضواحي مدينة أشير؛ وسفوح الجبل الأخضر ضمن المضارب القديمة لقبيلة تلكاته الصنهاجية.

وفي الوقت الذي استقر فيه الثعالبة بتلك المضارب انتقل الزناتيون هم الآخرون إلى مناطق التلول فاستقر بنو توجين بجبل الونشريس والمناطق المجاورة لها مما جعلهم يدخلون مع الثعالبة في صراع على المضارب؛ وهو ما يؤكد بقوله " فلما تغلب بنو توجين على التلول؛ وملكوا ونشريس؛ زحف محمد بن عبد القوي إلى المدية؛ فملكها؛ وكانت بينه وبينهم؛ حرب؛ وسلم؛ إلى أن وفدت عليه مشايخهم؛ فتقبض عليهم أغزى من وراءهم من بقية الثعالبة؛ واستلحمهم؛ واكتسح أموالهم؛ وغلبهم بعدها على تبطري؛ أزاحهم عنها إلى متيجة.

يتجلى لنا من النص الذي أورده ابن خلدون؛ أن وصول الهلاليين؛ والزناتيين؛ إلى مناطق التلول؛ كان بعد ضعف الدولة الموحدية؛ بعد معركة العقاب 609هـ/1212 قد أدى إلى صراع بين الطرفين؛ على المناطق التي تتميز بوفرة الماء؛ والكلاء.

فالعالم كان يبعد الطرف الآخر؛ والدليل على ذلك ما حدث للثعالبة الذين ابعدها إلى متيجة؛ وحل ما حل هؤلاء قبيلة حصين؛ وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: (وانزل قبائل حصين بتيطري؛ وكانوا في عداد الرعايا؛ يؤدون إليه المغارم؛ والوظائف.

فالقبايل الضعيفة خلال فترة العصور الوسطى؛ كانت ترتبط بقبيلة أقوى منها تقدم لها الحماية؛ مقابل الخضوع؛ ودفع الضرائب لها؛ وهو ما يؤكد لنا أن الزناتيين كانوا الأقوى؛ لأن الثعالبة حين انتقلوا إلى متيجة وجدوا بها قبيلة بربرية؛ وهي قبيلة مليكش الصنهاجية؛ فارتبط بهم الثعالبة؛ وهو ما يوضحه ابن خلدون بقوله " دخل الثعالبة هؤلاء في إيالة مليكش من صنهاجة؛ توطنوا تحت ملكهم؛ وكان عليهم سلطان كان هذا في مرحلة وصولهم إلى متيجة؛ وبعدها عرفت الناحية صراعات بين دول المغرب؛ التي نشأت على أنقاض الدولة الموحدية؛ ومن بين هذه الدول بني مرين؛ الذين تغلبوا على تلمسان خلال عهد السلطان أبو يعقوب المنصور؛ فتوسع على حساب متيجة؛ فأبعد عنها قبيلة مليكش؛ التي استقرت فيما بعد بالقرب من مدينة وهران

لجبل

م

ا

فلما

إلى

هم؛

لم؛

ين؛

ة

ميز

ة

ول

هـ

ي

أن

ية؛

ون

م؛

ت

من

و

حي

فهجرة الصنهاجيين من متيجة أتاحت للثعالبة الذين تعاونوا مع بني مرين الاستبداد بالمنطقة وهو ما يؤكد ابن خلدون بقوله " استبد الثعالبة بذلك البسيط وملكوه وكانت وفا دهم في أيام ولد سباع بن ثعلب؛ بن علي؛ بن مكن؛ بن صغير؛ ويزعمون أن سباعا هذا كان إذ وفد على الموحدين؛ يجعلون من فوق عمامته دينارا؛ يزن عددا من الدنانير.

فالعلاقة بين القبيلة؛ و الدولة الموحدية تعود بالدرجة الأولى؛ إلى عهد الدعوة الموحدية وبالتحديد خلال اجتياز ابن تومرت؛ وعبد المؤمن بن علي مضارب الموحدين بعد انتقاله من بجاية؛ إلى تلمسان؛ فاستقبله هؤلاء؛ ورحبوا به

وهو ما جعل الأشراف على القبيلة ينحصر بآل سباع؛ حتى عهد السلطان المريني أبو الحسن؛ الذي كان قد استولى على ملك بني عبد الوادي؛ بمقتل سلطائها أبي تاشفين الأول 737هـ/1337م؛ ثم امتد نفوذ بني مرين إلى الجزائر؛ وسيطر على سهل متيجة .

وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون " عندما غلب السلطان أبو الحسن على ممالك بني عبد الوادي؛ ونقلهم إلى المغرب؛ طرق الولاية؛ لآبي الجمالات ابن عائذ؛ بن ثابت وهو ابن حنش؛ فهلك في الطاعون الجارف؛ وأواسط هذه المائة الثامنة).

وفي منتصف القرن الثامن الهجري؛ استقر بمدينة الجزائر أبي الحسن المريني بعد عودته من تونس؛ فولى على الثعالبة؛ إبراهيم بن نصر؛ ولم تزل رئاستهم إليه؛ حتى هلك بعد استيلاء أبي عنان على المعريين؛ بعد اختفاء الدولة الزيانية؛ في عهد أبي حمو موسى الثاني؛ وقام برئاستهم ابنه سالم؛ الذي كون مشيخة بمدينة الجزائر.

دخلت مدينة الجزائر ضمن الصراع الذي حدث بين السلطان أبي حمو موسى الثاني؛ وابنائهم؛ فدخل الثعالبة ضمن هذا الصراع؛ مما جعل السلطان أبو حمو موسى الأول بمتيجة من تلمسان إلى الجزائر سنة 779 فراجع سالم الثعالبي لخدمته ثم زحف أبو حمو وحاصر أبو زيان بجبال متيجة واستنزلته وتقبض عليه وقادة إلى تلمسان ثم قتل الثعالبة وأخرجهم من متيجة إلى نواحي وادي يسر وغلبهم بعدها على تيطري وازاحمهم عنها إلى متيجة.

يتجلى لنا من النص الذي أورده ابن خلدون أن وصول الهلاليين والزنايين إلى مناطق التلول خاصة بعد ضعف الدولة الموحدية بعد معركة العقاب 609هـ/1212 قد أدى إلى صراع بين الطرفين على المناطق التي تتميز بوفرة الماء والكلاء.

وأما مدينة الجزائر خلال عصر الثعالبي فقد عرفت اضطرابات بين الدولة الحفصية؛ والزيرية؛ وأصبحت الجزائر تنتقل بين هؤلاء؛ وأولئك .

فالتنسي الذي تعرض لتاريخ مدينة الجزائر؛ هو من المعاصرين الثعالبي؛ قال أن الجزائر تابعة لدولة بني زيان؛ خلال حكم أبي تاشفين الثاني؛ وفي هذا الصدد علق التنسي على حكم أبي تاشفين؛ فقال ملك من ملوية؛ إلى جبل الزان " اكفادو.

وعن المستعين وهو من السلاطين الذين عاصروا الثعالبي؛ قال توجه إلى مضارب الثعالبية؛ ومنها توجه إلى الجزائر؛ فحاصرها مدة طويلة؛ حتى ضاق الأمر بمن فيها؛ ففر مقابلها وادعن من كان فيها؛ واسلموا البلد فدخلها؛ وأولا ولده المتوكل صحوة تاسع عشر رجب؛ وبعد يوم من هذا التاريخ؛ دخلها أمير المسلمين المستعين".

يستخلص الباحث من النص أن الجزائر خلال النصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي كانت من أهم المدن التابعة للدولة الزيرية مما جعل أمراء هذه الدولة يركزون عليها لموقعها الإستراتيجي؛ وقرها من أملاك الدولة الحفصية.

وان دخول المستعين لها؛ أساء لسكانها؛ مما جعل هؤلاء يشعرون عليه ويتخلصون من حكمه وهو ما يؤكد التنسي بقوله " ان أهل الجزائر وعرب وطنها نقلت عليهم وطأته؛ تمار أمن؛ تزايد أمره؛ فانفق رأيهم على الغدر به؛ فقاموا عليه في ثاني يوم من شوال 843هـ/ فاستشهد مع جملته من أصحابه).

الحركة الثقافية:

عرف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي انتشار حركة التصوف بين جميع طبقات الشعب؛ بما فيها طبقة الفقهاء؛ الذين كانوا قد نصبوا

الأفكار الصوفية العداء من قبل؛ فعرف العصر تغلب الفكر الصوفي على الحياة الفكرية؛ وعلى أكثر مظاهر الحياة بالبلاد .

وإذا رجع الباحث لكتب التراجم؛ التي دونت الحياة العلمية؛ وعلى الخصوص العلماء الصالحين؛ الذين ولدوا بالمغرب الأوسط؛ أو استقروا فيه؛ ومن اشتهر من هؤلاء في هذا القرن؛ محمد بن عمر ألهو أري؛ المتوفى سنة 843هـ/1439م؛ والحسن بن مخلوف الشهير بابر كان؛ المتوفى 857هـ/1453م وقد سماه محمد التنسي الوالي الزاهد القطب الغوث شيخ الرشاد وقصر العباد.

كما لعب التصوف دور هام في تعريب الطبقات الشعبية؛ سواء في الحواضر؛ أو في الأرياف؛ بفضل مدارسها التي استقبلت عدد من التلاميذ؛ ومنها استنفار الشعب وتحييده ضد المعتدين على دار السلام؛ ويمثل الثعالبي هذا الاتجاه؛ لان عصره تميز بتهديد الأسبان؛ والبرتغاليين؛ و الإيطاليين لسواحل المغرب؛ واستغلالهم كنقاط الضعف في ألد ويلات المغربية؛ وانقضاضهم عليها .

ومن بين المراكز المستهدفة بجاية؛ والجزائر؛ ووهران؛ وعنابة؛ وجيجل . ولعل بجاية كانت من أهم المدن التي رأى فيها الثعالبي أنها ستعرض لخطر الغزو المسيحي وهو ما جعله يكتب علمائها بحثهم إلى الجهاد ومن هؤلاء الشيخ أحمد الكفيف الذي نصحه الثعالبي بنقل كتبه إلى جبال زاوارة لان الأعداء إنما يقصدون المدن.

وأن دور هؤلاء العلماء قد أدى إلى تحضير السكان للمواجهة؛ فأهل بجاية قد صنعوا ذرق العود الذي لا تنفذ منه السهام؛ والسيوف؛ بدل ذرق الجلد.

وأن سكان الجزائر وضواحيها قد قاموا هم أيضا بالاستعداد للجهاد بعد أن حرضهم الثعالبي عليه فصنعوا ذرق العود من الصفصاف.

ومن المظاهر أيضا لجوء الناس إلى المتصوفة يحكمونهم في قضاياهم ويستنجدون بهم لحماية أنفسهم و أموالهم وأمتعتهم كلما ذهب ربح السلطان وعمت الفتن.

إلا أن هناك جوانب سلبية تتمثل على الخصوص في انحطاط مستوى النشاط العلمي؛ وركود الحياة الأدبية .

وقد ترتب عن هذا الأثر؛ زهد المتصوفة؛ الذي تغلغل في جميع الأوساط؛ بما فيها العلماء؛ و الأدباء .

ومع أن الدولة الزيانية التي كانت تشرف على مدينة الجزائر؛ قد وهنت قواها خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بسبب التنافس الخارجي على أملاكها؛ المتمثل في كل من الدولة المرينية؛ والحفصية، لكن ذلك لم يؤثر على الحركة العلمية و هو ما يؤكد التنسي في مجموعة من النصوص.

ومما يلاحظ على القرن التاسع الذي عاش فيه الثعالبي؛ كثرة الاتصالات؛ بين العلماء؛ وازدياد تنقلهم بين الأمصار حاملين معهم مؤلفاتهم؛ وأفكارهم؛ وهو ما يؤكد أبو راس الناصري عندما تعرض للثعالبي قال في شأنه (أنه التقى بابن مرزوق الحفيد في تونس؛ رحلته وساعده على إكمال كتابه؛ على ابن الحاجب.

وان نشاط الحركة الفكرية في هذا العصر يشهد عليها العدد الكبير من العلماء الذين أنجبهم العصر؛ وقد جاوزت شهرتهم السنين والأجيال .

ألا أن الثقافة في ذلك العصر كانت تحمل في طياتها عناصر التدهور والانحطاط؛ والسبب في ذلك هو تعلق العلماء بالماضي؛ فقد كانوا يقلدون؛ تقليد أعمى كل ما خلفه الأسلاف؛ وهو ما يلاحظه الباحث عندما يتصفح الكتب التي ألفها الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في العلوم المتداولة خلال عصره.

الرحلة العلمية:

تعلم الثعالبي في قريته ثم انتقل إلى بجاية⁽⁶⁾ سنة 1400/802 واخذ فيها من علمائها وبعد ذلك انتقل إلى تونس⁽⁷⁾ سنة 1406/809 ثم ارتحل إلى القاهرة⁽⁸⁾ ومنها إلى تركيا فالبحار⁽⁹⁾ أين آذى فريضة الحج ثم قفل راجعا إلى بلاده بعد ما زار معظم أقطار المشرق

دون رحلته وذكر فيها بعض شيوخه ولم يذكر البعض ومن هؤلاء أصحاب الفقيه أبي زيد عبد الرحمان الوغليسي⁽¹⁰⁾ وأبي عثمان المنجلاقي⁽¹¹⁾ وأبي الربيع سليمان بن الحسن المشدالي⁽¹²⁾ وهم من كبار علماء الجزائر في عصره واما الآخرين فقد تعرض لهم في رحلته حيث ذكر انه عندما رجع لتونس وجد الشيخ العالم الجليل

أبو مهدي عيسى الغبريني⁽¹³⁾ الذي اعتبره من أبرز علماء عصره علما وأدبا وأخلاقا، إلا أن الثعالبي لم يتلمذ عليه مباشرة لأنه توفي قبل وصول الثعالبي لتونس لكنه أخذ عن تلامذته وهو ما يؤكد بقوله قدماء: (وجلس في موضعه الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد القلشاني⁽¹⁴⁾ فأخذته عنه ولازمته مدة).

لم يكن القلشاني هو الوحيد الذي استفاد منهم بل اتصل بالعالم الجليل أبو القاسم البر زلي⁽¹⁵⁾ الذي لا يقل علما عن الأول فأخذ عنه علم الحديث وفي هذا الصدد يقول: (أخذت عن البر زلي في المرة الأخيرة؛ رواية البخاري؛ ولم يفتن من سماعي عليه. للأسير؛ ولم يكن يومئذ بتونس من أعلمه؛ فقدمي في علم الحديث)

فالذي يستنتج: أن البر زلي لم يكن من المدرسين لعلم الحديث؛ ويتجلى ذلك من خلال مؤلفاته؛ وعلى الخصوص النوازل؛ التي اشتهر بها المغاربة. ويبدو أن الثعالبي عندما التقى بالبر زلي في المرة الأخيرة؛ عند عودته من المشرق؛ كان في المستوى الذي كان عليه البر زلي في علم الحديث؛ بعد أن استفاد من علماء المشرق؛ ويقول في هذا الصدد: (وكان بعض فضلاء المغاربة هناك؛ يقول لي لما قدمت علينا من المشرق؛ رأييناك آية للسائلين في علم الحديث «).

لكن الثعالبي لم يتوقف عن الاستفادة من علماء عصره في هذا العلم؛ وهو ما يؤكد بقوله " لا أسمع بمجلس يروى فيه الحديث الأخضر ته؛ جعل الله ذلك خالصا لوجهه ومبلغا الأمر ضالته).

لم يكن البر زلي هو الوحيد الذي اقبل عليه؛ بل نجد من الشيوخ الآبي⁽¹⁶⁾ الذي اتصل به وقد أمره بكتابة الاستدعاء؛ وهذا يظهر لنا أنه خلال القرن التاسع الهجري / للخامس عشر الميلادي؛ أن الطالب لا يمكن له حضور جلسات بعض العلماء؛ إلا بعد موافقتهم؛ وفي هذا الصدد يقول الثعالبي: (أمرني بكتب الاستدعاء فكتبت ما يالي: (الحمد لله رب العالمين؛ وصلواته على سيدنا محمد؛ اشرف الأنبياء؛ صلاة تدخرها ليوم الدين

أما بعد؛ فيقول العبد الفقير؛ إلى الله سبحانه؛ عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي لطف الله به؛ هذا الاستدعاء أتمس به الآذن بالإقراء؛ فيما تذكره من

سيدي ومولاي الشيخ الإمام الحجة؛ الثقة؛: أمام المحققين؛ الجامع بين حقيقي القول والمعقول وفي التصانيف الفائقة البارعة؛ والحجج الساطعة اللامعة؛ سيدنا أبي عبد الله محمد بن خليفة).

بعد هذه الرسالة؛ وموافقة على حضور دروسه؛ عكف الثعالبي على الأخذ عنه وذكر لنا في رحلته ما درسه عليه فقال: " فيما حضرته عليه قراءة بحث وتحقيق وتدقيق تأليفه الفائق؛ الذي جمع فيه شرح مسلم؛ مع زيادته الحسنة الضائفة؛ حضرته عليه قراءة بحث وتحقيق؛ وتدقيق؛ من أوله كتاب الطهارة؛ أو كله وكذلك كثيرا من أواخر مسلم؛ وكذلك كثيرا من المدونة منوال؛ وغير منوال؛ فمن المنوالي من أول الزكاة؛ إلى أوائل النكاح؛ وكثيرا ما قرأته من البيوع؛ فيما تتولى منه من أول الحج إلى الأيمان، وكذلك الإرشاد لأبي المعالي؛ كله ألا يسيرا منه؛ نحو ورقتين أو ثلاثة من أوله إلى آخره، وكذلك بعض ابن الحاجب الأصلي؛ وكثيرا من تفسير القرآن من سورة التزويل؛ إلى سورة الفتح يتجلى للباحث ما يلي:

أولا: ان الثعالبي من خلال هذا النص أوضح لنا المنهج؛ والمواد التي تدرس في عصره؛ ففيما يتعلق بالنقطة الأولى؛ فالدروس لم تكن تلقينه فقط؛ بل كانت تتخللها المناقشة؛ والحوار المتواصل؛ بين الشيخ وطلابه؛ للتأكد من الرواية والوصول إلى الحقيقة؛ فهي قراءة بحث وتدقيق حسب تعبير الثعالبي نفسه..

أما المصادر التي كانت تدرس في هذه المجالس؛ مؤلفات هؤلاء الشيوخ؛ حيث تعرض على الطلبة أمهات مصادر الفقه المالكي؛ وبقية الفنون الإسلامية الأخرى المتداولة في أغلب الحواضر الإسلامية؛ خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

وبعد المداومة على دروس الشيخ فترة من الزمن؛ يطلب التلميذ من شيخه منحه إجازة تسمح له بتدريس ما تلقاه عنه؛ وعند ما طلب الثعالبي الإجازة أجابه الشيخ بقوله " الحمد لله ما ناله الصاحب؛ الفقيه الصالح المبارك؛ الأكمل؛ أبا زيد عبد الرحمن الثعالبي؛ في الصفائح الأولى من هذه الأوراق؛ جميع ما يجوز لي روايته؛ وما يصح نسبته إلي بأي وجه يصح النسبة المذكورة؛ ورواية الكتب المذكورة؛ في هذه الأوراق وغيرها على العموم؛ والإطلاق؛ إجازة تامة مطلقة عامة).

لم يتوقف الثعالبي عند هؤلاء فقط بل أخذ عن ابن مرزوق الحفيد⁽¹⁷⁾ فقد جاء في رحلته (طلبت الآذن؛ بالإقراء جميع ما يجوز له؛ وعند روايته؛ ورجو من بركته آذنا واجازة؛ بالتحدث عنه؛ وآذنا باداعة علما ما تلقناه منه؛ ومن غيره من مشايخنا رحمهم الله؛ وأقرأ من لب ذلك من أخ في الله مسترشد وجاهلا يرغب في التعليم من أهل؛ وولد؛ وقريب؛ وصديق.

يلاحظ أن الطلب يختلف عن الذي وجهه لأبي من قبل؛ ولعل ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى مكانة ابن مرزوق الحفيد؛ عند الثعالبي الذي قال عنه؛ رئيس المحققين؛ وقادقم السيد الكبير؛ والذهب الإبريز؛ و العالم سيدي أبو عبد الله محمد بن مرزوق. وقال في موضع آخر؛: (هو شيخني الأمام الصدر الكبير؛ المحدث؛ المحقق؛ بقية المحدثين؛ وأمام الحفظة الأقدمين؛ والمحدثين؛ سيد وقته؛ وأمام عصره؛ وورع زمانه) ويتجلى لنا من الرحلة؛ أن ابن مرزوق كان يقدر الثعالبي

مما جعله يجب طلبه؛ و هو ما يوضحه هو بنفسه فيقول: (فأجاب ابن مرزوق أنني أدنت له حفظه الله تعالى؛ في الحديث؛ والإقراء؛ وتعليم الجاهلين وارشاد المسترشدين؛ فهو أهل لذلك؛ وسالك إن شاء الله أحسن المسالك .

فابن مرزوق من أجابته هذه لم يحدد الثعالبي المصادر التي يمكن له روايتها عنه كما حدث عن الذي أجازه من قبل؛ بل منح له أجازه عامة تسمح له بتدريس كل الفنون الإسلامية ، كما تنبأ له بالمكانة؛ التي سيكون عليها الثعالبي.

لم يتوقف الثعالبي بالاكْتفاء بهذه الإجازة؛ بل يريد الاستفادة من المعارف التي تلقاها ابن مرزوق خلال رحلته المشرقية؛ واحتكاكه بعلماء حواضره؛ وهو ما يؤكد بقوله: (ثم لما حج شيخنا ابن مرزوق رحمه الله تعالى؛ بعد ما تقدم من التاريخ؛ لقي بمصر الشيخ الأمام الرحالة المعمر سيد الديار المصرية؛ محمد بن عبد اللطيف بن الكريك فحدثه بجملة مصنفاته؛ وإجازة روايتها، ولم يكن لدى شعور بهذا الشيخ المذكور؛ وحين دخوله مصر لقيه ابن مرزوق؛ بعد وصولي من مصر؛ وقد جازني جميعا شيخنا ابن مرزوق.)

يتجلى مما سبق ان الثعالبي استفاد أيضا مما اخذه ابن مرزوق عن علماء البلاد المشرقية؛ من مصادر ذكرها في رحلته؛ وهي حلية ابن نعيم؛ وموطأ الأمام محمد بن الحسن القباني؛ وكتاب الآداب المفردات؛ للبخاري؛ وبر الوالدين له؛

وشمائل الترميذي وكتاب عمل اليوم وليلة؛ لأبي السني؛ وكتاب دلائل النبوة للبيهقي؛ وكتاب الآداب له ومسند عبد الله بن حميد؛ ومسند الطيالسي؛ أبي جميع؛ وكتاب الطيالسي؛ والسنن الشافعي؛ ورواية المترقي؛ للأمام ابن حنبل؛ وكتاب الورع له؛ وكتاب ألا شربة له ومعجم ابن نافع؛ والمعجم الكبير للطبراني؛ والمعجم الأوسط له؛ والمعجم الصغير له وشرح النسبة للبغدادى؛ والمصاييح له؛ و مشارف الأنوار؛ وكتاب الأقدار للنووي وكتاب رياض الصالحين؛ وسلاح المؤمن والمجالسة؛ للدينصورى؛ ورسالة القشري.

تلامذته:

أخذ عنه علماء كثيرون منهم على الخصوص محمد بن يوسف السنوسي⁽¹⁸⁾ وأخوه لأمه علي بن محمد التالوقي ومحمد بن عبد الكريم المغيلي⁽¹⁹⁾ ومحمد بن محمد بن مرزوق الكفيف⁽²⁰⁾

توفي في 23 رمضان المبارك سنة 875 / 1470 ودفن بزاويته بالجزائر العاصمة.

مؤلفاته:

من بين مؤلفاته نذكر على وجه الخصوص مراثي⁽²¹⁾ الشيخ الثعالبي؛ وهو عبارة عن جزء صغير يوجد ضمن مجموع في الخزانة العامة بالمغرب الأقصى؛ أوله: (الحمد لله؛ إخواني وفقكم الله؛ كما يحبه ويراضه لنا؛ فيما قدره وقضاه).

والمراثي استشرق خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس والسادس عشر الميلاديين؛ للظروف التي عرفت بها بلاد المغرب؛ بسقوط الأندلس؛ وبداية التوسع الأسباني؛ والبرتغالي؛ على سواحله

الجواهر الحسان في تفسير القرآن⁽²²⁾

فالنسخة القرية من عصر المؤلف؛ هي التي توجد بخزانة القرويين⁽²³⁾

مجلد ضخمة؛ بخط مشرقى واضح؛ وعناوين الصور؛ ورؤوس الكلام بالأحمر؛ مقابل على نسخة صحيحة عليها خط المؤلف؛ في مواضيع شتى. يبدأ بسورة الحجر؛ وينتهي بالتفسير للآية 455 من هذه السورة.

قال مؤلفه في آخره: (قد يسر الله تعالى تلخيص هذا المختصر؛ وقد أودعته بحول الله جزيلا، قد استوعبت فيه بحمد الله مهمات ابن عطية؛ أسقطت كثيرا من التكرار؛ وما كان من الشواذ في غاية الوهن؛ وزدت من غيره جواهر؛ ونفائس لا لاستغنى عنها؛ مميزة معزة لمجالها؛ منقولة بألفاظها؛ وتوخيت في جمع ذلك الصدق والصواب.

ومن وجد في هذا الكتاب تصحيحا؛ أو خلافا؛ فأرغب إليه أن يصلحه؛ من الأمهات المنقول منها).

وبعد نهاية المؤلف من تفسير القرآن الكريم؛ لحق بتفسيره جزءا مستقلا في شرح ما وقع فيه من الغرائب؛ في اللغة؛ وزاد فيه بيان ألفاظ؛ وقعت في غيره يكثر في اللسان دوراتها؛ وحلها مما وقع في الموطأ؛ والبخاري؛ ومسلم؛ وغيرهما من الكتب السنة.

واعتمد في إيضاح ذلك على صحاح أبي بكر الجوهري؛ ومختصر الغني؛ لأبي بكر بن حبيب الزهري؛ وغريب القرآن؛ والحديث لأبي عبد الله محمد بن محمد ألهو أري؛ والمشارك لأبي الفضل عياض؛ ورتب المؤلف الغريب على حروف المعجم؛ على طريقة المغاربة؛ في ترتيب الحروف.

أعقب هذا التأليف المهم؛ برسالة في موضوع ماروي من الروايات؛ في فضل تفسير المؤلف؛ والجواهر مرتبا لها على مقدمة فيما ينبغي أن يعلم من علم الرؤيا؛ وما في ذلك من الآثار؛ ثم فصول من المراتي؛ التي تقتضي فصيلة تفسيره.

وفرغ من هذه الرسالة في شوال سنة 863هـ/ قال: (وقد بلغت سن تسعة وسبعين؛ أو ثمانية وسبعين؛ كان الفراغ من نسخة سن ثمانية وستين؛ وتسعمائة

هذه النسخة هي التي أوقفها الثعالبي على الجامع الأزهر؛ برواق المغاربة؛ وقبل مع النسخة المذكورة التي حبسها مولاي الرشيد؛ على خزانة الجامع الكبير. نفائس الأنوار المضيئة للجامع بين الحقيقة والشرعية يتعلق بالتصوف؛ خصصها لاربعة حديثا؛ التي انتخبها للشيخ عبد العظيم المنذري؛

وقال: (وقفت على كلام الشيخ أبي عبد الله محمد السلمي الشافعي عليها. في المقدمة تخريج هذه الأحاديث؛ ذكر فيها فضل العلم؛ والذكر؛ والدعاء؛ والقرآن و أبواب أخرى؛ تتعلق بما يقال عند الصباح؛ والمساء؛ ولبس الثياب؛ ودخول الديار. يتضح من هذه الأبواب؛ أن الكتاب يتعلق بتربية المؤمن؛ وعلاقته بالله عز وجل؛ وقد انتق الثعالبي المعلومات الواردة فيه؛ من أمهات المصادر؛ التي تمكن من الاطلاع عليها؛ لأن الثعالبي معروف بكثرة النقل؛ وهذه سمة عصره. رياض الصالحين وتحفة المتقين⁽²⁴⁾).

يحتوي على مقدمة في التذكير بالموت والقبر ويصف كتابه بأنه جامع لفنون من العلوم وفوائد جمة لمن يريد حرث الآخرة قسمه إلى أبواب منها : باب فيما ينبغي ان يكون عليه الإنسان في ونهاره وليله ، باب جامع لجملة من الآثار تزهّد في الدنيا وترغب في الآخرة، باب في فضل الدعاء والذكر، باب مشتمل على فصول فيها وصايا ، باب في ذكر الموت وما بعده، باب جامع لأحوال الموتى باب جامع في قراءة القرآن على القبور باب جامع لما يراه الميت، باب ما جاء في صفات الجنة .

العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة⁽²⁵⁾

قسم المؤلف كتابه إلى مجموعة من الأبواب باب في ذكر الموت والرفات ومصير الأرواح، باب ما يدعوا به العبد قبل موته، باب الاستعداد للآخرة باب في حمل الجنازة إلى القبر، باب في أحوال القبر، باب ما يقال عند وضع الميت في قبره، باب ماروي عن عجائب الموتى باب ما جاء في النهي عن تخصيص القبور والكتابة عليها باب في تعارف الموتى، باب صفة حشر الناس باب ما جاء في هول أيام القيامة وغيرها من الأبواب الأخرى.

جامع الأمهات لاحكام العبادات :

يحتوي على مقدمة كتاب الطهارة؛ وأقسام المياه؛ ومعرفة الماء؛ وحكم ما تغير من أصله؛ وماء السطوح؛ وتسخين الماء؛ في آنية الطعام؛ ووضع الإبريق النجس في الحوض؛ والماء المتغير.

فالكتاب في جملة يشتمل أيضا؛ على كل ما يتعلق بالطهارة .

ونستخلص مما ورد فيه؛ في موضوع الطهارة أشياء كثيرة؛ تتعلق بالحياة الاجتماعية؛ في الجزائر خلال عصره؛ حيث نجد أسماء الأواني المتعلقة بالطبخ

؛ وكذلك المياه وكيفية جمعها؛ مثل مياه السطوح؛ والملابس التي كانت مستعملة وحتى بعض الحيوانات التي كانت تعيش مع الإنسان؛ كالقطط؛ والكلاب.

روضة الأنوار ونزهة الأخبار⁽²⁶⁾:

يقول في مقدمته: (آن بعد أخبرني وفقني الله إليكم؛ بما يحتويه برضاه؛ ويصف سوى فيكم؛ بينما قدره وقفاه؛ وجعلنا وإياكم من الفائزين. .

من جملة ما تناوله في الكتاب جملة من الأذكار؛ والدعوات؛ وهي الأربعون حديثاً؛ ثم فصل في بند مختار؛ تراجم تتعلق بمناقب الأمام مالك بن انس؛ ومناقب جملة من أصحابه؛ يزيد عددهم على مائة .

ثم قال أيضاً: (ومما وجدته مقيدا عن بعض الأوراد واضحة لسيدي عبد الرحمن بن البنا الفردوس؛ ولعبد الله بن سهل ألبوني؛ فصل لدعاء الشيخ الكرمانى؛ ومن تصانيف السنن لابن عطاء الله؛ وكتاب الأنوار للطليطلي؛ وكلام الغزالي؛ والشيخ إلى مدين شعيب).

ثم صفة الأنبياء وما جاء في فاتحة الكتاب.

يتجلى لنا من العرض المتعلق بمحتوى الكتاب؛ أن الثعالبي ركز فيه على ما يتعلق بالتصوف؛ فأورد معلومات خاصة بالمتصوفة؛ الذين اثروا على العالم الإسلامي؛ مثال الأمام الغزالي؛ وابن عطاء الله الاسكندراني؛ وآبي مدين شعيب؛ ومؤلفات هؤلاء كثر تداولها خلال عصر الثعالبي؛ في أغلب حواضر المغرب الإسلامي.

في السيرة والتاريخ

ان شهرة الثعالبي تكاد تكون مقتصرة على العلوم الشرعية؛ والزهديات .

ففي كتاب الأنوار؛ في آيات الله المختار تحدث عن سيرة الرسول (ص) وعن غزواته؛ وسير الصحابة؛ وغزواتهم؛ وأوصافهم اتبع في ترتيبه ترتيب أبي اسحق ونقل من كتب الأئمة مع تخريج الأحاديث ولقد بين ان الدافع لتأليفه هو حبه للرسول صلى الله عليه وسلم

قسم كتابه إلى أبواب وفصول متبعا أيضا تقسيم أبي إسحاق في سيرته حيث يدا الكتاب بذكر نسب الرسول صلى الله عليه وسلم . كما احتوى على نبذة مختارة في شرف الرسول (ص).

وهناك كتاب آخر للثعالبي يدخل في كتب التراجم هو الذي يعرف بجامع الهمم في أخبار الأمم.

والكتاب تناول فيه مناقب الأمام مالك؛ ومناقب أصحابه؛ ثم أخذ في تقييد جمل وجواهر؛ ونفائس؛ اختارها من كتب كثيرة؛ وقد عدد كرامات الأمام مالك؛ ونماذج من الأذكار؛ والأدعية ..

أثناء عملي بالمكتبة الوطنية وغيرها؛ من خزائن المخطوطات؛ خاصة بالجنوب الجزائري؛ تبين لي؛ أن عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي دعا صيته بأغلب مناطق الجزائر؛ وحتى بخارجها خاصة ببلدان المغرب الإسلامي؛ لانتشار مؤلفاته . تملك الخزائن جزء هام من تراثه؛ لكن ما كتب عليه قليل؛ إذا ما قورن بما كتبه هو.

فشهرة الثعالبي قد غطت الآفاق؛ ودرسه أكثر من واحد؛ ولا يكاد الباحث يجد كتابا من كتب التراجم؛ لم يتناوله بالقليل؛ أو الكثير.

فحياته إذن معروفة؛ وعصره مدروس؛ وبعض تأليفه متداول بين الناس؛ مثل الجواهر الحسان.

وضريحه حجة للزائرين؛ في مدينة الجزائر إلى اليوم؛ ولهذا فهو مرتبط بالمدينة

نسب الشيخ إلى إحدى القبائل العربية العتيقة التي استقرت في الجزائر بعد الهجرة الهلالية (13)

الثعالبة :

قبل التعرض لحياته يجدر بنا تناول قبيلة الثعالبة التي ينتسب إليها عبد الرحمن الثعالبي؛ وهي حسب ما أورده ابن خلدون: (من ولد ثعلب بن علي؛ بن بكر؛ بن صغير أخي عبد الله بن صغير وهم من المعقل الذين استقر بعضهم ببلاد الجزائر مثل ذوي عبد الله؛ من عرب الجزائر؛ والثعالبة استقروا بسهل متيجة (31)

الذي عرفه عبد الرحمن بن خلدون بسيط متيجة؛ وقبل تواجدهم به؛ استقروا بمضارب حصين؛ التي توجد بنواحي المدية .

ويبدو لي أن تواجدهم بالناحية؛ بدأ مع انتقال الهلالين من الواحات الصحراوية نحو التلول؛ خاصة الجهة الغربية؛ فكان استقرارهم مع استقرار بني عامر؛ وذوي عبيد الله؛ في الناحية الغربية. (32)

ولعل من أهم المراكز التي استقروا بها ضواحي مدينة أشير؛ وسفوح الجبل الأخضر ضمن المضارب القديمة لقبيلة تلكاته الصنهاجية (33) .

وفي الوقت الذي استقر فيه الثعالبة بتلك المضارب انتقل الزناتيون هم الآخرون إلى مناطق التلول فاستقر بنو توجين بجبل النوشريس (34) والمناطق المجاورة لها مما جعلهم يدخلون مع الثعالبة في صراع على المضارب؛ وهو ما يؤكد به بقوله " فلما تغلب بنو توجين على التلول؛ وملكوا ونشريس؛ زحف محمد بن عبد القوى إلى المدية؛ فملكها؛ وكانت بينه وبينهم؛ حرب؛ وسلم؛ إلى أن وفدت عليه مشايخهم؛ فتقبض عليهم أغزى من وراءهم من بقية الثعالبة؛ واستلحمهم؛ واكتسح أموالهم؛ و غلبهم بعدها على تبطري؛ أراحهم عنها إلى متيجة.

يتجلى لنا من النص الذي أورده ابن خلدون؛ أن وصول الهلالين؛ والزناتيين؛ إلى مناطق التلول؛ كان بعد ضعف الدولة الموحدية؛ بعد معركة العقاب 609هـ/1212 قد أدى إلى صراع بين الطرفين؛ على المناطق التي تتميز بوفرة الماء؛ والكلاء.

فالغالب كان يبعد الطرف الآخر؛ والدليل على ذلك ما حدث للثعالبة الذين ابعدوا إلى متيجة؛ وحل ما حل هؤلاء قبيلة حصين؛ وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: (وانزل قبائل حصين بتيطري؛ وكانوا في عداد الرعايا؛ يؤدون إليه المغارم؛ والوظائف.

فالقبايل الضعيفة خلال فترة العصور الوسطى؛ كانت ترتبط بقبيلة أقوى منها تقدم لها الحماية؛ مقابل الخضوع؛ ودفع الضرائب لها؛ وهو ما يؤكد لنا أن الزناتيين كانوا الأقوى؛ لأن الثعالبة حين انتقلوا إلى متيجة وجدوا بها قبيلة بربرية؛ وهي قبيلة مليكش الصنهاجية؛ فارتبط بهم الثعالبة؛ وهو ما يوضحه ابن خلدون بقوله " دخل الثعالبة هؤلاء في إيالة مليكش من صنهاجة؛ توطنوا تحت ملكهم؛

وكان عليهم سلطان كان هذا في مرحلة وصولهم إلى متيجة؛ وبعدها عرفت الناحية صراعات بين دول المغرب؛ التي نشأت على أنقاض الدولة الموحدية؛ ومن بين هذه الدول بني مرين؛ الذين تغلبوا على تلمسان خلال عهد السلطان أبو يعقوب المنصور؛ فتوسع على حساب متيجة؛ فأبعد عنها قبيلة مليكش؛ التي استقرت فيما بعد بالقرب من مدينة وهران (35)

فهجرة الصنهاجيين من متيجة أتاحت للثعالبة الذين تعاونوا مع بني مرين الاستبداد بالمنطقة وهو ما يؤكد ابن خلدون بقوله "استبد الثعالبة بذلك البسيط وملكوه وكانت وفا دهم في أيام ولد سباع بن ثعلب؛ بن علي؛ بن مكن؛ بن صغير؛ ويزعمون أن سباعا هذا كان إذ وفد على الموحدين؛ يجعلون من فوق عمامته دينارا؛ يزن عددا من الدنانير. (36)

فالعلاقة بين القبيلة؛ و الدولة الموحدية تعود بالدرجة الأولى؛ إلى عهد الدعوة الموحدية وبالتحديد خلال اجتياز ابن تومرت؛ وعبد المؤمن بن علي مضارب الموحدين بعد انتقاله من بجاية؛ إلى تلمسان؛ فاستقبله هؤلاء؛ ورحبوا به

وهو ما جعل الأشراف على القبيلة ينحصر بآل سباع؛ حتى عهد السلطان المريني أبو الحسن؛ الذي كان قد استولى على ملك بني عبد الوادي؛ بمقتل سلطانها أبي تاشفين الأول 737هـ/1337م؛ ثم امتد نفوذ بني مرين إلى الجزائر؛ وسيطر على سهل متيجة .

وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون " عندما غلب السلطان أبو الحسن على ممالك بني عبد الوادي؛ ونقلهم إلى المغرب؛ طرق الولاية؛ لآبي الجمالات ابن عائد؛ بن ثابت وهو ابن حنش؛ فهلك في الطاعون الجارف؛ وأواسط هذه المائة الثامنة).

وفي منتصف القرن الثامن الهجري؛ استقر بمدينة الجزائر أبي الحسن المريني بعد عودته من تونس؛ فولى على الثعالبة؛ إبراهيم بن نصر؛ ولم ترل رئاستهم إليه؛ حتى هلك بعد استيلاء أبي عنان على المعريين؛ بعد اختفاء الدولة الزيانية؛ في عهد أبي حمو موسى الثاني؛ وقام برئاستهم ابنه سالم؛ الذي كون مشيخة بمدينة الجزائر.

دخلت مدينة الجزائر ضمن الصراع الذي حدث بين السلطان أبي حمو موسى الثاني؛ وابنائهم؛ فدخل الثعالبة ضمن هذا الصراع؛ مما جعل السلطان أبو

حمو موسى الأول. بمتيجة من تلمسان إلى الجزائر سنة 779 فراجع سالم الثعالبي لخدمته ثم زحف أبو حمو وحاصر أبو زيان بجبال متيجة واستنزله وتقبض عليه وقادة إلى تلمسان ثم قتل الثعالبة وأخرجهم من متيجة إلى نواحي وادي يسر وغلبهم بعدها على تيطري واراخمهم عنها إلى متيجة.

يتجلى لنا من النص الذي أورده ابن خلدون أن وصول الهلاليين والزنايين إلى مناطق التلول خاصة بعد ضعف الدولة الموحدية بعد معركة العقاب 609هـ/1212 قد أدى إلى صراع بين الطرفين على المناطق التي تتميز بوفرة الماء والكلاء.

فالعالم كان يبعد الطرف الآخر والدليل على ذلك ما حدث للثعالبة الذين أبعادوا إلى متيجة وحل ما حل هؤلاء قبيلة حصين وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون وأنزل قبائل حصين بتيطري وكانوا معه في عداد الرغايا يؤدون إليه المغارم والوظائف.

فالقبايل الضعيفة خلال فترة العصور الوسطى كانت ترتبط بقبيلة أقوى منها تقدم لها الحماية مقابل الخضوع ودفع الضرائب لها وهو ما يؤكد لنا أن الزنايين كانوا الأقوى لأن الثعالبة حين انتقلوا إلى متيجة وجدوا بها قبيلة بربرية وهي قبيلة مليكش الصنهاجية لذا ارتبط بهم الثعالبة وهو ما يوضحه ابن خلدون بقوله " دخل الثعالبة هؤلاء في إيلة مليكش من صنهاجة وأوطنوا تحت ملكهم وكان عليهم سلطان

وأما مدينة الجزائر خلال عصر الثعالبي فقد عرفت اضطرابات بين الدولة الخفصية؛ والزيرية؛ وأصبحت الجزائر تنتقل بين هؤلاء؛ وأولئك .

فالتنسي الذي تعرض لتاريخ مدينة الجزائر؛ هو من المعاصرين الثعالبي؛ قال أن الجزائر تابعة لدولة بني زيان؛ خلال حكم أبي تاشفين الثاني؛ وفي هذا الصدد علق التنسي على حكم أبي تاشفين؛ فقال ملك من ملوية؛ إلى جبل الزان " اكفادو.

وعن المستعين وهو من السلاطين الذين عاصروا الثعالبي؛ قال توجه إلى مضارب الثعالبة؛ ومنها توجه إلى الجزائر؛ فحاصرها مدة طويلة؛ حتى ضاق الأمر بمن فيها؛ ففر مقابلها وادعن من كان فيها؛ واسلموا البلد فدخلها؛ أولا ولده المتوكل صحوة تاسع عشر رجب؛ وبعد يوم من هذا التاريخ؛ دخلها أمير المسلمين المستعين".

يستخلص الباحث من النص أن الجزائر خلال النصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي كانت من أهم المدن التابعة للدولة الزيانية مما جعل أمراء هذه الدولة يركزون عليها لموقعها الإستراتيجي؛ وقرّبها من أملاك الدولة الحفصية.

وان دخول المستعين لها؛ أساء لسكانها؛ مما جعل هؤلاء يشعرون عليه ويتحصلون من حكمه وهو ما يؤكد التنسي بقوله " ان أهل الجزائر وعرب وطنها نقلت عليهم وطأته؛ تمار أمن؛ تزايد أمره؛ فانفق رأيهم على الغدر به؛ فقاموا عليه في ثاني يوم من شوال 843هـ/ فاستشهد مع جملته من أصحابه).

الحركة الثقافية:

عرف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي انتشار حركة التصوف بين جميع طبقات الشعب؛ بما فيها طبقة الفقهاء؛ الذين كانوا قد نصبوا الأفكار الصوفية العداء من قبل؛ فعرف العصر تغلب الفكر الصوفي على الحياة الفكرية؛ وعلى أكثر مظاهر الحياة بالبلاد .

وإذا رجع الباحث لكتب التراجم؛ التي دونت الحياة العلمية؛ وعلى الخصوص العلماء الصالحين؛ الذين ولدوا بالمغرب الأوسط؛ أو استقروا فيه؛ ومن اشتهر من هؤلاء في هذا القرن؛ محمد بن عمر المهورى؛ المتوفى سنة 843هـ/1439م 23؛ و الحسن بن مخلوف الشهير بابر كان 24؛ المتوفى 857هـ/1453 وقد سماه محمد التنسي الوالي الزاهد القطب الغوث شيخ الرشاد وقصر العباد.

كما لعب التصوف دور هام في تعريب الطبقات الشعبية؛ سواء في الحواضر؛ أو في الأرياف؛ بفضل مدارسها التي استقبلت عدد من التلاميذ؛ ومنها استنفار الشعب وتحييده ضد المعتدين على دار السلام؛ ويمثل الثعالبي هذا الاتجاه؛ لان عصره تميز بتهديد الأسبان؛ والبرتغاليين؛ و الإيطاليين لسواحل المغرب؛ واستغلالهم كنقاط الضعف في ألد ولايات المغربية؛ وانقضاضهم عليها .

ومن بين المراكز المستهدفة بجاية؛ والجزائر؛ ووهران؛ وعنابة؛ وجيجل .

ولعل بجاية كانت من أهم المدن التي رأى فيها الثعالبي أنها ستتعرض لخطر الغزو المسيحي وهو ما جعله يكتب علمائها بحثهم إلى الجهاد ومن هؤلاء الشيخ أحمد الكفيف الذي نصحه الثعالبي بنقل كتبه إلى جبال زواوة لان الأعداء إنما يقصدون المدن 26.

وأن دور هؤلاء العلماء قد أدى إلى تحضير السكان للمواجهة؛ فأهل بجاية قد صنعوا ذرق العود الذي لا تنفذ منه السهام؛ والسيوف؛ بدل ذرق الجلد. وأن سكان الجزائر وضواحيها قد قاموا هم أيضا بالاستعداد للجهاد بعد أن حرضهم الثعالبي عليه فصنعوا ذرق العود من الصفصاف. ومن المظاهر أيضا لجوء الناس إلى المتصوفة يحكمونهم في قضاياهم ويستنجدون بهم لحماية أنفسهم و أموالهم وأمتعتهم كلما ذهب ربح السلطان وعمت الفتن 27.

إلا أن هناك جوانب سلبية تتمثل على الخصوص في انحطاط مستوى النشاط العلمي؛ وركود الحياة الأدبية. وقد ترتب عن هذا الأثر؛ زهد المتصوفة؛ الذي تغلغل في جميع الأوساط؛ بما فيها العلماء؛ و الأدباء.

ومع أن الدولة الزيانية التي كانت تشرف على مدينة الجزائر؛ قد وهنت قواها خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بسبب التنافس الخارجي على أملاكها؛ المتمثل في كل من الدولة المرينية؛ والحفصية، لكن ذلك لم يؤثر على الحركة العلمية و هو ما يؤكد التنسي في مجموعة من النصوص.

ومما يلاحظ على القرن التاسع الذي عاش فيه الثعالبي؛ كثرة الاتصالات؛ بين العلماء؛ وازدياد تنقلهم بين الأمصار حاملين معهم مؤلفاتهم؛ وأفكارهم؛ وهو ما يؤكد أبو راس الناصري عندما تعرض للثعالبي قال في شأنه) أنه التقى بابن مرزوق الحفيد في تونس؛ رحلته وساعده على إكمال كتابه؛ على ابن الحاجب.

وان نشاط الحركة الفكرية في هذا العصر يشهد عليها العدد الكبير من العلماء الذين أنجبهم العصر؛ وقد تجاوزت شهرتهم السنين والأجيال.

ألا أن الثقافة في ذلك العصر كانت تحمل في طياتها عناصر التدهور والانحطاط؛ والسبب في ذلك هو تعلق العلماء بالماضي؛ فقد كانوا يقلدون؛ تقليد أعمى كل ما خلفه الأسلاف؛ وهو ما يلاحظه الباحث عندما يتصفح الكتب التي ألفها الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في العلوم المتداولة خلال عصره

الهوامش:

- (1) عن عبد الرحمان الثعالبي انضر البغدادي إسماعيل أضح المكنون ج 3 ص 345 احمد بابا التمبكتي نيل الابتهاج ص 125، 126 الحفناوي تعريف الخلف برجال السلف ج 1 ص 68، 72.
- (2) الثعالبة قبيلة هلالية تنسب الى المعقل استقرت بسهل متيحة خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي عنها انضر ابن خلدون العبر ج 6 ص.
- (3) وادي يسر من بين وديان الجزائر يصب في البحر المتوسط.
- (4) السخاوي الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ج 1 ص 255.
- (5) سلامة البسكري هو عيسى بن سلامة البسكري لم تشر المصادر إلى تاريخ ميلاده . واكتفت بأنه ألف كتابه.
- (6) بجاية مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر المتوسط وهي من بين المدن القديمة اتخذها ألقما ديون عاصمة لدولتهم في عهد الناصر لدين الله.
- (7) تونس عاصمة الجمهورية التونسية أسسها حسان بن النعمان وهي قرية من قرطاجية الرومانية اتخذها الحفصيون عاصمة لدولتهم خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.
- (8) القاهرة عاصمة جمهورية مصر العربية أسسها المعز لدين الله الفاطمي واتخذها عاصمة لدولته بعد انتقال مقر الخلافة من المغرب إلى بلاد المشرق.
- (9) بلاد الحجاز المقصود بها الأماكن المقدسة مكة والمدينة المنورة التي كانت ولإنزال مقصد الزائرين.
- (10) عبد الرحمان الوغليسي نسبة الى بني وغلبيس بولاية بجاية كان من كبار علماء بجاية خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي تخرج عليه مجموعة من كبار العلماء ومن بينهم عبد الرحمان الثعالبي.
- (11) عثمان المنجلاتي نسبة الى بني منجلان وهي إحدى بطون قبيلة صنهاجة استقرت ببجاية وكان من رجال الإفتاء ببجاية أورد الماروني مجموعة من النوازل نسبها له انضر الدرر المكنونة في نوازل مازونة ج 1 ص.
- (12) سليمان المشدالي ينسب إلى قرية مشدالة بولاية البويرة وعائلته تعتبر من أهم العائلات العلمية نذكر من بين علمائها ناصر الدين المشدالي وأبو عمران المشدالي وأبو الفضل المشدالي وأبو القاسم المشدالي.
- (13) عيسى الغبريني ينسب الى بني غبرين الذين كانت مساكنهم على ضفاف وادي الصومام بولاية بجاية حاليا كان من اكبر فقهاء الدولة الحفصية وقضاها.
- (14) القلشاني عالم جليل من علماء تونس ومن كبار فقهاءها أورد المزوني له مجموعة من النوازل
- (15) البر زلي من علماء تونس أيضا من أهم مؤلفاته نوازل البر زلي توجد نسختين منها بالمكتبة الوطنية.

- (16) الآبي من ابرز علماء المغرب تخرج عليه كبار علماء عصره اشتهر في علوم الشريعة من فقه وحديث.
- (17) ابن مرزوق الحفيد ينتسب إلى أسرة علمية في تلمسان هي أسرة المرابطة ساهمت في إثراء الثقافة الإسلامية خلال عهد الدولة الزيانية وهو محمد بن احمد بن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني المتوفى 842 / 1438 ابن مريم البستان ص 210.
- (18) محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني كنيته أبو عبد الله من كبار علماء تلمسان اشتهر على الخصوص في العقائد لمزيد من المعلومات عنه انضرا بن مريم البستان ص 237، 248 حاجي خليفة كشف الضنون ج 1 ص 170.
- (19) محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني كنيته أبو عبد الله ينتسب إلى قبيلة مغيلة ولد ونشأ بتلمسان وتوفي بإدرار 1499/905 عنه انضر احمد بابا التمكني نيل الابتهاج ص 355، 357 الحفناوي ابو القاسم تعريف الخلف برجال السلف ج ص 170، 171.
- (20) ابن مرزوق الكفيف من علماء تلمسان عنه انضر ابن مريم البستان ص 215.
- (21) المراثي أو الرؤية المباركة وهي رؤية الرسو صلى الله عليه وسلم في المنام رقم المخطوط في المكتبة الوطنية 3226 الرقم التسلسلي 02 الرقم التسلسلي للأوراق من ق 145 إلى 151..
- (22) الجواهر الحسان رقم المخطوط المكتبة الوطنية 2450، 2477، 2434 المجموع 1، الرقم التسلسلي للأوراق من ق 1 إلى 210 مكتبة وزارة الشؤون الدينية رقم 24، 25، 26، زاوية عجاجة ورقلة رقم 12.
- (23) القرويين المقصود به مسجد القرويين بفاس الذي توجد به مكتبة ثرية في المخطوطات بها مجموعة هامة من المخطوطات لعلماء الجزائر ورقم الجواهر الحسان هو 26 ن 1673، 27، 28 968/1560.
- (24) رياض الصالحين المكتبة الوطنية رقم 3373؛ 883 دار الكتب الناصرية بتمكروت المغرب رقم 1948 والمكتبة العامة بتيطوان 443.
- (25) العلوم الفاخرة رقم المخطوط بالمكتبة الوطنية 2799، الرقم التسلسلي في المجموع 1 الرقم التسلسلي للأوراق من ق 1 إلى 143 وزارة الشؤون الدينية 391 إلى 395، الخزانة العامة بالرباط 1001، 1152.
- (26) الأنوار في آيات النبي المختار رقم المخطوط بالمكتبة الوطنية 3096، جامع الزيتونة 240، الخزانة العامة بالرباط 583، 821.